نصوص ٩٠

وجوه للحياة

مجموعة قصصية

مصطفى عطية جمعة

مجموعة قصصية

وجوه للحياة

(بعض القصص)

د. مصطفى عطية جمعة

منشورات
سلسلة نصوص ٩٠- القاهرة
- ١٩٩٦

الحنطة

الأب بكار:

حتى الحيات، خرجت تتلظى و تلتمع جلودها المزركشة تحت نيران القرص المتعامد في السماء، كأنه يتعقبنا.

أيتها الأفاعي، كفي عن اللهث، فلن تنالي من جسدي و لا جسد زوجتي"برية"التي ضَمُر ثديها، و رضيعنا معلق فيه، و ابناي، و ابنتي يجرون أقدامهم كأنها العصي. هل تطمعين – أيتها الأفعى – في الحنطة التي أحكمت ربطها على بطني، و قد حفظت أعداد حبيباتها؟

تقعرت بطني، لا يزال النفس يتردد، فلا تتطلع عيونكم – أبنائي – إلى الحنطة و إن كان القلب يهُن لكن دقاته تُعالي صوت القذائف التي صَمّت إحداها أذنيّ... هناك في بقايا بلدتنا"بربرة".

تقوست ساقاي، ليس بعد، أمامنا ليالي حتى نصل إلى السلك الشائك للحدود. تتحسس أناملي الحنطة، كأن ملمسها نغم. تلسعني عيونهم، و بريق الروح يتسلل من شفاههم التي أخرست ضنًا بالرذاذ المتطاير مع الكلمات. لن أقرب حبيبة واحدة، سأقاوم أيها الرضيع، ألا تترك قطعة الجلد المعلقة في فيك. افتح عينيك حتى أشم الروح منها، أو حرك أصابعك المتجمدة كالعقارب المتناثرة موتا حولنا.

هل تشبع من سكونك..؟ لا... إنه يُذكّرني بسكون أبي في قبره تحت الأنقاض، بينما النيران تتصاعد للنجوم.

السكون في خلاياي. تقترب طاقة النور، من قلبي. الآن... ربما الحنطة... تعزف الموت لي..... و الحياة لكم.

الأم برية:

تصلبت الرمال أمام أظفارنا. أنترك عظامك تنبت الأشواك. الأرض هنا لن تجود بقبرك. أحكم ربط الحنطة حول بطني. رضيعي"فرح"فارقني مقتلعًا ثديي. ساكن بجوار من ألقى بذرته في رحمي التصق ولداي و ابنتاي ببطني.. يفكون القماش، لا تزيدوا – فلذات كبدي – على كف من الحبات.. ثم أسرعوا بأقدامكم.

الظلام مطبق، و أجسادنا المتساندة في نومها ترتجف. تلك النجمة، واهنة حركتها من المشرق إلى حيث يبتلعها المغرب. هل تتأسين – أيتها النجمة – لوحدتك في السماء أم لوحدتنا؟ ها هو القرص يتسارع بخيوط أشعته المحرقة. تفتحت أبصارنا تتخطى تماس الأفق من بعيد.

شدوا يدي – أبنائي – ليلة واحدة، منذ فارقتنا يا"بكار"و يا"فرح". الحنطة تتناقص و أنفاسكما تلاحقني. دعوا يدي.. فالصمت يملأ جسدي.

عيونكم ستواصل المسير نحو سلك الحدود الشائك، حيث هناك يهطل الماء، و يلمع رذاذه من السماء. الصمت الآن...

..... له رنين مع طاقة النور التي تدنو مني.

الولدان و البنت:

عند رأس"برية"تقول البنت:"لا تنهوا الحنطة حتى نستطيع أن نصل". توقفت أسنان الولدين، كان الأفق ملتفًا بالاحمرار. تلفتت عيونهم، تصرخ في الجسد المسجي....

"أين السلك الشائك يا أمنا؟، أفيقي، و أشيري لنا.. سنعدوا نحوه، قد شبعنا.. أشيري.. أشيري ..".

تقول البنت:"أمنا"برية"مع"فرح"و أبي"بكار"لا تقلقوها".

.....

النجمة تسرع من المشرق للمغرب، مرات، و مرات.. عيونهم.. الآن.. معلقة بالجسد الذي بدأ في الانتفاخ و قد ازدادت بطونهم تقعرًا، يصطرخون جوعًا...

..... ثم تلاحقت... أسنانهم على اللحم المنتفخ.

أكتوبر ١٩٩٣

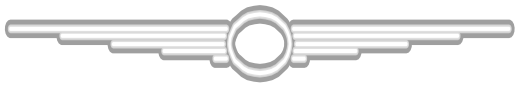

حلوق حارة

تطلع النوخذة"صالح"إلى المياه التى أذابت في شفافيتها لون السماء. و هي تداعب جنبات السفينة الثابتة في مكانها منذ أيام، بعرض البحر. يتكسر اللون الأبيض و الأزرق مع الطحالب الطافية. السكون يتحرك من أعماق الماء طافيًا. يحلّق إلي الكون الانهائي، فيكسوه بالصمت. يتأمل تجاعيد أصابعه المتشبثة بأحد حبال السفينة. يداه السمراوان بفعل لفح الشمس، تعكسان مرور السنين. منذ حادثته مع الأمواج، روى له أبوه كيف ألقي به في البحر ولا تزال براءته عمرها شهور. صرخت أمه و استحال لونها مثل"الكركم"، و فغرت فمها، و الدموع تملحت بعينيها. قال الأب: "ستحفظه الملائكة يا"أم صالح"و سيباركه البحر".

ظل يتهادى على الأمواج و طمأنينة تُسيّل نفحاتها حوله، فتحيل بكاءه إلى انبساط، ثم أطلقت أمه زغرودة.

رفع بصره للسماء، سحابة تتجمع في بطء تتأرجح مترددة في تلاقيها ؛ فلا ريح. أشرعة سفينتهم تستجدي كتل الهواء، يديرونها للجهات الأربع و هي في انتصابها بنسيجها المفرود و البحارة يتسمّرون منذ تنفس الفجر، و يستمرون مع تلظى الشمس رويدًا... رويدًا، و حين تتمركز الأشعة السماء يهربون إلى باطن السفينة.. ولكن "النُوخَذة"يبقي متعلقا بالحبل، مبتسمًا للسماء،

يناجيها، و اللسان صامت،و المآقي تتقلّب، فاليقين يجري بدمائه منذ نعومة أنامله،

صهريج الماء يتناقص بمرور السويعات، يتجمعون على رشفات منه محسوبة، طعامهم أسماك، لازمت أنوفهم رائحة شوائها دومًا.

تتسرب الساعات.. و الأيام و الماء.. بضع سنتيمترات.. قطرات.. ثم... اهتزت الأحداق.. أشار نحو المخزن، قائلاً:

– تركنا هنا بضعة آلاف من ثمار جوز الهند، التي شحناها من إحدى الجزر، وزعوا الثمرات، كل بحّار له واحدة في يومه.. يرتشف عصيرها.

تدافعوا، بنهم في امتصاصها.. هل ستكفي؟

بحّار يلقي بثمرة فارغة في الماء، يرميها بقوة، تطير، هل يراسل بها الريح الخامدة، هل يهمس بها للهواء..؟.. يفصح بها عما في صدره؟

صاح فيه، و فيهم:

– حافظوا على الثمرات الفارغة.

كومتان لجوز الهند: كومة تتناقص و أخرى تتزايد. السويعات بطيئة في سكونها، الليل سواده ممزق بأنجم سهرت على مناجاة صدورهم و انفلات ذكرياتهم.. هناك على الشاطئ، أولادهم و بناتهم يتأملون الأفق في نقطة التقائه بالأمواج، علّه مع بزوغ شمس أو أفولها تظهر نغمات أشرعة سفينتهم العائدة، فتنطلق صرخات الفرح.. ثم ترتمي الأجساد الصغيرة على صدور الآباء السمراء، و

يغدون لأكواخهم حيث أزواجهم في حبور، و أمهاتهم قبضن طوال فترة الغياب على أفئدتهن، في حين رسمت وجوههن رباطة الجأش.

يتسلل"صالح"من مخدعه، يتنسم الهواء المشبع بالرذاذ، يستشعر طعم الرطوبة في رئتيه. يبلل وجهه و مرفقيه و قدميه، يستطعم ملوحة الماء بين شفتيه،... يطيل ركوعه، يصمت في سجوده تاركًا دقات فؤاده تعلو....

كومة الثمرات الفارغة ارتفعت و الأخرى تلاشت، تحلّقوا حوله.. كلمات "النُوخَذة"قليلة:

– ليس أمامنا سوى الشموخ، سنشعل الثمرات الفارغة، بعد تجفيفها و نقوم بتقطير ماء البحر، و لا يزيد الواحد في شربته عن رشفة واحدة و له نصف كوب في اليوم.

الصبر عقد مآقيهم ؛ فثبتت تطالع البخار المتصاعد من القدر و المتكاثف على لوح نحاسي، القطرات تنزلق على اللوح تحمل كل قطرة حياة، أحشاؤهم تخرج حرارة تلفح وجناتهم، تعالى غضب الشمس. كومة الثمرات تتناقص.

تفلتت الليالي، الذكرى تجثم على النفوس، الكلام محتبس، زفير طويل ملتهب. الكومة.... صارت رمادًا.

على ظهر السفينة استلقوا، يرطبون شفاههم بالماء المالح، ركوعهم و سجودهم في جلوسهم.. تُستَحرّ المناجاة على الألسن.

"صالح"، دقات فؤاده صاخبة، مع كلمات أبيه التي ترن في مسامعه، الآن:

"الملائكة ستحفظك، و سيباركك البحر".

يستشعر هفهفات أجنحتها تداعب روحه.

يركعون و يسجدون بجفونهم، و الأحداق تناجي، و الشفاه ابيضت لترسب الملح عليها،.. يضحك"صالح"الأجنحة البيضاء تحمل البشرى، رذاذًا باردًا يقطر في فمه، يتجلى أبوه بنظراته الحانية.

دفقات الريح، السحب تتجمع تتزاحم في طبقات، المطر يغرق ثيابهم، يذيب ملوحة أفواههم، يتوغلها ليرطب الأحشاء.

كتل الهواء تملأ الأشرعة. الجفون تستسلم مع اهتزاز السفينة التي تمخر الأمواج.

مايو ١٩٩٤

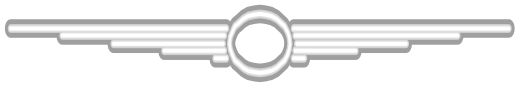

الشخليلة

هو: مشغول بالمساومة مع التجار، أسفل عمارته، علي الصوت.

وها هي زوجته، تطل و بناتها بضحكهن الدائم من"فراندة"الشقة، و أمسكت بابنه الوحيد على الإناث، الذي كان ملهيًا بـ"الشخليلة".

الولد ينفلت من يديها، متكوّرًا في الهواء مرات. يستقر قرب قدميه.

الزوجة تلطم، البنات تولول.

يصدم رأسه بالحائط، يجذب شدقيه إلى الخلف، فيصطبغ دمعه بالدم.

الأكف تقلّب الجثمان الصغير على تراب الحارة...

"ماسحو الجوخ"بين مصمصة و حوقلة و ترجيع.

ولد"مفلفل"الشعر، أشعثه، يقرض بأسنانه لقمه ناشفة، يلتقط الشخليلة التي انزوت جوار"موتوسيكل"، يهزها، تتعالى شخللتها.

يوليو ١٩٩٦

أيا.. جدي..

تمددت على"الكنبة"التي تتوسط ساحة الدار. لك أيام تشكو من ضيق أنفاسك، و ثقل صدرك. تتلحف بملاءة – أرختها خالتي عليك. أمكث بجوارك، أترقب انفلاج عينيك المكسوتين بالبياض في حدقتيهما، عندما تكشفها أجفانك عند الآذان، ثم يرتخي الوجه، و تستكن التجاعيد المنتفخة من طول الرقاد. تتمتم:

– صدري سخن... يفور..

تزفر، يلسعني زفيرك. الكل ملته عنك، تأتي عيونهم، تتأملك في غفوتك. تتعلق أناملي المدببة بكفك الأسود، براحته الخشنة، و أظفارك المطمورة في أصابعك. كنت تضحك علي بكائي عندما يسقط"الشاكوش"على حواف يدي، و أنا أقلّدك عندما تدق و تصنع شُبّاكًا أو بابًا. تطبطب على ظهري، و ذراعك يتوغل في جيب"السَيّالة"في جلبابك، لتخرج"الكراملة"و تقول:"أنت نجار نونو... و أنا نجار عجوز".

وتردف:"زبائني كلهم ماتوا أو مثلي، ناس توّصل ناس".

وتقبع على أريكتك أمام دكانك الذي يشغل طرف دارنا، تنظر في اللا شئ.

يتحرك جسدك النحيل، وعظامك تبرز من أكتافك، يدك متخشبة بيدي، تهمس وتكرر:

– حرّك"الكنبة"... و تشير ناحية"الدهليز".

أُلُفّها، و أكتم أنّاتي، و تلتف معي، قد صرت خفيفًا، تهمس بأن أكفّ. ثم استكانتك ثانية، و استفهام يتشكل بنفسي. يتحرك

لسانك بالتمتمة ... وأفغر فمي كلمات السماء تتغلغلني و برودة تسري في مسامي من راحة كفك. هذا هو...، الخوف، و كلّك تتصلب أمامي، أعيّط بقوة، خالتى تسلّك أصابعي منك تسقط طاقيتك عن صلعتك، و شيبتك، تطبق خالتي شفتيك القائمتين، و تشد إصبع قدمك الكبير..؟ ثم الملاءة على وجهك. لم لا تصرخين يا خالتي؟ دموع فقط تبلل ثوبك و أنت تستندين برأسك إلى ركبتيك في انزوائك بجانب السرير النحاسي العالي."لهاوى"النسوة اللائى ملأن الدهليز، تائه أنا في أثوابهن السوداء و أيديهن ترقع خدودهن اللاتى تحمرن..... و خالتي لا زالت في قرفصتها...؟

قبرك من قوالب الطين، سوَّيته بيدك، و كنت معك، و ها هي عظامك الملفوفة تتمدد في الحفرة ثم التراب... الأرجل عائدة. هل ستبقى هنا و حدك؟

الكنبة في عوجتها، و جلبابه مطوي بطرفها، و السكون، خالتي.. في تكومها، و"الكراملّة"المتناثرة على الأرض الأسمنتية، أربتُ على كتفها، و أشير بالتساؤل إلى الكنبة، تحتويني أكفها السمراء، فأتجمع في حجرها، تهز أصابعها بين الكنبة و الجامع...

أيا.. جدي..

تمددتَ على"الكنبة"التي تتوسط ساحة الدار. لك أيام تشكو من ضيق أنفاسك، و ثقل صدرك. تتلحف بملاءة أرختها خالتي عليك. أمكث بجوارك، أترقب انفلاج عينيك المكسوتين بالبياض في حدقتيهما، عندما تكشفها أجفانك عند الآذان، ثم يرتخي الوجه، و تستكن التجاعيد المنتفخة من طول الرقاد. تتمتم:

– صدري سخن... يفور..

تزفر، يلسعني زفيرك. الكل مشغول عنك، تأتي عيونهم، تتأملك في غفوتك. تتعلق أناملي المدببة بكفك الأسود، براحته الخشنة، و أظفارك المطمورة في أصابعك. كنت تضحك على بكائي عندما يسقط"الشاكوش"على حواف يدي، و أنا أقلّدك عندما تدق المسامير و تصنع شُبّاكًا أو بابًا. تطبطب على ظهري، و ذراعك يتوغل في جيب"السَيّالة"في جلبابك، لتخرج"الكراملة"و تقول:"أنت نجار نونو... و أنا نجار عجوز". وتردف:"زبائني كلهم ماتوا أو مثلي، ناس توّصل ناس".

و تقبع على أريكتك أمام دكانك الذي يشغل طرف دارنا، تنظر في اللا شئ.

يتحرك جسدك النحيل، و عظامك تبرز من أكتافك، يدك متخشبة بيدي، تهمس وتكرر:

– حرّك"الكنبة"... و تشير ناحية"الدهليز".

أُلفّ ّ ُها، و أكتم أنّاتي، و تلتف معي، قد صرت خفيفًا، تهمس بأن أكفّ. ثم استكانتك ثانية، و استفهام يتشكل بنفسي. يتحرك لسانك

بالتمتمة... و أفغر فمي كلمات السماء تتغلغلني و برودة تسري في مسامي من راحة كفك. أهذا هو الموت؟، الخوف منه، تتصلب أمامي، أبكي بقوة، خالتى تسلّك أصابعي منك تسقط طاقيتك عن صلعتك، و شيبتك، تطبق خالتي شفتيك القائمتين، و تشد إصبع قدمك الكبير..؟ ثم الملاءة على وجهك. لم لا تصرخين يا خالتي؟ دموع فقط تبلل ثوبك و أنت تستندين برأسك إلى ركبتيك في انزوائك بجانب السرير النحاسي العالي. صرخات النسوة اللائى ملأن الدهليز، تائه أنا في أثوابهن السوداء و أيديهن ترقع خدودهن اللاتى تحمرن..... و خالتي لا زالت في قرفصتها...؟

* * *

قبرك من قوالب الطين، سوَّيته بيدك، و كنت معك، و ها هي عظامك الملفوفة تتمدد في الحفرة ثم التراب... الأرجل عائدة. هل ستبقى هنا و حدك؟

* * *

الكنبة في اعوجاجها نحو القبلة، و جلبابه مطوي بطرفها، السكون، خالتي.. في تكومها، و"الكراملّة"المتناثرة على الأرض الأسمنتية، أربتُ على كتفها، و أشير بالتساؤل إلى الكنبة، تحتويني أكف خالتي السمراء، فأتجمع في حجرها، تهز أصابعها مشيرة بين الكنبة حيث كان جثمان جدي وإلى قبلة الجامع.

أغسطس ١٩٩٦

أنفاس متحشرجة

اصفرار يسيل من مآقيهم المبحّلِقة بروتينية في سلطانية الفول، رائحة زيته، تتسرب إلى صدورهم، فتحمل فتورًا.

ملامحهم تهدلت لقلة النوم، وانتفخت مع تمدد القرف على الشفاه. بأناملهم لقيمات يابسة، تحمل حبات فول، قد تكون إحداها متحجرة، فتكسرها أسنانهم مع زفير حار.

"وداد"زوجة ابنهم الغائب، منذ عام و نصف في"ليبيا"يفترش حجرها صغيرها"حسن"، تقشّر له حبات الفول، تهرسها بضرسها، ثم تدفعها رخوة في فمه. رِيقها تبتلعه مرًا، لم تفلح كِسراتُ الخبز في محو مرارته. تصاعدت رائحة خواء معدتها إلى جيوبها الأنفية، فمطت شفتيها.

ليلتها كانت أرقة مع بكاء ابنها الصغير الرضيع، تركه الزوج بذرة – لم ينتظر إنباتها – ها قد أثمرت. بكاء... يلتصق بكتفها طيلة النهار، و ينام على حلمة ثديها الذي صار يجود بالقليل.

السلطانية خوت من الحبات، اللقيمات تبتل بالسائل البني و الزيت، ثم تقذف بالأفواه.

حموها يرفع يده ليمسح شاربه، يهرش شعره الشايب تحت لاسته. لحيته المغبرة، و غضانة ملامحه تذكر"وداد"بالخناقة اليومية المعتادة حول المصاريف.

رضيعها ما نام إلا مع صوت الديك، الذي بات يشكو وحدته في"العشة"بعد ذبح كل الفراخ.. الرضيع.. هل سيطول نومه أم سيعلو أنينه..؟

يفتح الرضيع عينيه، يزيح"كوفرتته"القديمة و التي أحكمتها أمه حوله، يطلق صرخة...، صرخات...، بكاءً متصلاً.

حماتها تهمس لابنتها. تتوقع"وداد"أن تلتفت لها، ثم تشكشكها بكلام حول زوجها الغائب و التي انقطعت حوالاته منذ شهور، و صار أولاده عالة عليهم. يخفق قلبها بدعاء الرجوع بالسلامة للزوج.

الصمت يقطعه صوت حميها هاربًا لدكانه، تتعقبه حماتها بطلب مصروف الغداء منه، يفلت سبابًا متلاحقًا، يضرب في انتصابته جيوب جلبابه. أبناؤه يتلوون في جلستهم و تتطاول ألسنتهم ببخله.

الرضيع يزحف إلى وسط الفراش. البكاء يرتفع. هو لا يزال في بداية حبوه، ينصب فخذًا و يجرُّ آخر، يصل لحافة السرير.

ليلتها كانت طويلة، السواد يعبقها يومًا بعد يوم، تتقلّب على الفراش الواسع، بعد إطباق رضيعها عينيه، الثواني بطيئة في سكونها. ذكريات همسات الزوج الدافئة و لثماته، و تخدُّر جوارحها حين كان يقترب...، تهرش شعرها الذي بدأ يخشن لقلة تمشيطه، جلبابها اختلطت به رائحة الطهي مع الغبار. و تتقلّب كأنها على شوك.

يسقط عن الفراش.. على الأرض.. على وجهه.. صرخة واحدة.. متصلة.

لسان حماتها يفوح... تهرب"وداد"بنظراتها و سكونها إلى"الوابور"حيث الماء المغلي بالشاي الجاف، تزيد النار"بالكباس". كلهم يترقبون الحوالة، يظنون أنها معلقة بالبريد. يقول أحدهم:

– أنا كل يوم أسأل"حسنين"البوسطجي...

الشاي الدامس السواد، تدور الأكواب و رشفات متتابعة غير عابئة بسخونته. أصوات الرشفات المطوطة تشعرها بلثمات الزوج... كأن ضلوعها تتكسر على قلبها.

يزحف الرضيع على الأرض، نحو خزانة الملابس...

حموها"جزمجي". يقول أخو زوجها:

– ما عاد أحد يصنع أحذية.. الكل همه على الجاهز.

تقول حماتها:

– أنت و أبوك، لا نأخذ منكما إلا"الفذلكة".

بكاؤه يعلو، مكتومًا مع انحشاره أسفل الخزانة، يستنشق التراب المتراكم على الأرض الأسمنتية، فيسد أنفه و فمه.

حماتها تتحرش بها لتهجرها إلى منزل أبيها... حيث زوجة شقيقها و كركرة ضحكاتها على زوجها الغائب، أما أبوها فهو في اختلائه الدائم بغرفة فوق السطح.

ضغط ضلوعها على قلبها، ترفس حماتها"الطبلية"، تأمر"وداد"أن ترفعها و ما عليها من صحون تغسلها. يفور هواء زفيرها.

كأن هُتافًا من رحمها يحرّكها، تقلب"الطبلية"في اندفاعها، تتطاير السلطانية و الصحون و الأكواب، ترتقي السلالم الحجرية، لعنات حماتها في أثرها، تكسر مزلاج الباب،"الكوفرتة"... خالية، تقلب محجريها، تجده في حشرته أسفل الخزانة، مكتوم الأنفس، ترقع بالصوت العالي. يتحلّقون حوله، ينظفون فمه و أنفه، يدلّكون صدره، صراخها يستلهم من العيون المحدقة:

– هل ضناها.....؟

حماتها و قبلة هواء طرية على شفتيه، الصُفرة تكسو وجوههم، هل تصدِّق؟ و صدره يتحشرج بين يديها و جسده ينتفض في تتابع، هل يسكن الجسد الصغير الذي يؤنس مع أخيه فراشها الشوكي؟

مايو ١٩٩٦

قُـرَّافَــة

ليلة النصف من شعبان"المولد"، تمايل العمائم مع"الله حي.. الله حي"، طقطقات"البمب"من بنادق الصبية، صواني"الفَتّة"، حلقات حولها، المعلم "قُرَّافَة"، يقرقر من نارجيلته دخانًا أزرق يعبق نور"الكولبّات"، دعوات من حوله: أن تدوم ختمته. همس من أحد الآكلين:

–هذه اللحمة من"الوقيع"الذي يبيعه و لاّ حلال؟

يغمسه بالصمت من بجواره، و هو يكبس لقمة أرز كبيرة بين فكيه.

....

الليل في ثلثه الأخير..

الصواني خلت، العمائم تلاصقت نُعاسًا، الأرجل إلى مضاجعها، و هو تثاقلت قدماه في حركتها لتصدم"النارجلية"، يتسند على أحد صبيانه، صاعدًا عمارته..

ارتكز بقفاه على خشب السرير الخلفي، عيناه مغمضتان نصف إغماضة. لسانه:

– أبوي... أمي... خلاص"جاي"لكم.

نغمات صوته الأجشّ تقطعت، اصفرّ وجه زوجته، انقلب على وجهه، قفاه محمرّ من أثر الخشب المدبب،... العويل، ثم الندب...

المغسل.. ترتعش يداه، و هي تتحسس اللحم العاري، يُنكِّس بصره عن الوجه المتصلب الأحداق. يخِرّ"كوز"الماء من يده على الأرض، تقوست قدماه في انسحابها من الغرفة. الجسد البارد بين الأيدي المقشعِرَّة، و هو يلتف في أثواب الحرير اللامعة الخيوط.

امرأة المغسل تلاحقه باستفهامات عديدة و هو يركن إلى لحافه.. مغطيًا وجهه، تمتم:

– شفت.... شفت....

الصرخات تشق حر الظهيرة، الجثمان ينحدر من عمارته، أولاده يتشبثون به و هو يُسجَّى فوق النعش، الأكتاف تتدافع لتحمل الأذرع الخشبية الأربعة. أحد الرجال يئن:

– إنه ثقيل جدًا.

زاحم كُلُ بعاتقه، يتحرّك النعش،"لهفات"بناته من شرفة عمارته. خطوات، يتوقف النعش، رغم الأرجل المتسارعة تحته. الألسن:

– سِرّ على بركة الله. و تكررها مرات.

ببطء يتحرك. الصلاة و التكبيرات. ها هو قبره الأسمنتي، و هذا هو النعش، يكاد يتخلّع من الأكف المتيبّسة. هتاف الحلوق بحرقة....

الجثمان متصلِّب، يأبى التقدم...

فبراير ١٩٩٦

الضبّ

كانت تغط غطيطًا يقطعه شخير مرتفع، ثم تفتح عينيها بأحداق مصفرّة، تديرها في سقف حجرتها، ذي العروق الخشبية السوداء، و تفغر فمها بصرخ متقطع. أطالع في فكها العلوي"ضبًا"أوحد، ينتصب لامعًا في فضاء"حنكها"القاتم. بأناملها المبتلة، تقطر جدتي في فمها قطرات ماء. فتستكين صرخاتها، و تنطبق شفتاها المتشققة.

تهمس إحدى العجائز:

– الوليّة"أم محمد"تموت، و لا أحد من أولادها معها.

ردت جدتي بصوت خافت:

– أرسلوا لابنها"محمد"الحلاق، دكانه في سوق الفراخ.

عقبت إحداهن و أصابعها تخفي كلماتها:

– له عامان لم يجئ بعد أن شتمته أمه، و شلّقت لامرأته.

... رفَّسَت"أم محمد"، فانحسر لحافها المهترئ، عن رجلين نحيفتين، و أقدام معروقة.

أذكر عندما اشترت كومة"لحم رأس"مقلية في الزيت، من"أم عبد"بائعة "الحواوشي"، بعدما أشبعتها شتمًا و سخرية على ابنها"عبد"الأخنف الذي يلزم أمه دومًا في جلستها بالسوق، أعطتني قطعة"كِرشة"، نقَّط زيتها على جلبابي. و حين قضمتُ منها قضمة، و لُكتُها بأسناني لم تتمزّق و انزلقت متكورة لأحشائي، بينما تسحبت"أم محمد"و تغطّت بلحافها، و سمعت من ضلفة شباكها غناءها و كلامها مع نفسها المشبّع بالسُباب.

سألت خالتي، و هي تستدفئ بشمس الشتاء فوق السطح:

– لماذا الولية"أم محمد"ضبّها طويل قوي؟ هل يجرح لثتها؟

هربت خالتي بعينيها إلى الشوال الذي تخيطه. ألححت بتكرار سؤالي، فربتت على قفاي و قالت:

– لأنها تخبث كثيرًا....

تصرخ"أم محمد"و جدتي تسكب الماء على جبينها، انقلبت على وجهها، فانحسرت طرحتها ؛ كانت شعراتها كالقطن و ذراعاها تتلويان كالثعابين، بكيت، سحبتني خالتي إلى الدهليز الخارجي، ثم سمعت ولولة النساء. أسرعت أطالع من فرجة الشباك: جدتي تسبّل عينيها بينما تصلب فمها مفتوحًا... و الضب منتصب، هل سد ما بين الفكين؟

قالت خالتي: – السر الإلهي صعد.

ليلة"السُبوع"تسلّلتُ إلى غرفتها، معي علبة كبريت، أشعلتُ عودًا، أين صندوقها؟ سأحرقه، وجدته منزويًا تحت سريرها النُّحاسيّ، جررته، غطاؤه يصدر أزيزًا، رائحة الزيت المقلي تعبق خياشيمي، تلوت بأحشائي قطعة"الكِرشة".

كان بداخله: طرحتها، جلبابها، لحافها، أطباقها الصاج،...، شهقت، اهتز شعري، لِمَ لَمْ يصعد معها إلى السماء أو ينزل قبرها؟

في قعر الصندوق..... ضبّها منتصبًا لامعًا.

مارس ١٩٩٦

-"هَمّهَمّ"في مستشفى الكلب.

قال صاحبى الذى يقطُن بجواره، و بعد استفهامي، أردف:

- كلب مسعور أنشب مخالبه بساقه عند عودته قبل الفجر..، أيام وتجمع الشارع على صراخ زوجته حين نبح، وقطّع مرتبة الفراش.

مع وردية الحلم المتفتح، على أعتاب الجامعة، سمعت عن مهمته التى نقل من "طره"لأجلها، استشعرتها في نظراته المتوغلة في صدورنا، لتسجل الأمل الدافيء، والحماس المنتشي، فتحيلها أسطرًا في أجندة زرقاء، مدفونة تحت إبطه.

متأملاً شعيرات نابتة في ذقني، طالعني بالسؤال عن الاسم و العنوان. قلبي كان غضًا. هل كنت جبانًا و أنا ألوّن الكذب على لساني؟ أم أصطنع التقية لنفسي؟ لاتزال عيناه ولونهما السناج، تحملان لأعماقي قضبانًا و جدرانًا.

فسر أحدنا اسمه:

-"هم"بالليل، و"هم"بالنهار.

قلت:

- قد حمل اسمه في نفسي منذ البدء معاني السُعار.

رعب تسطر على وجه طالب، هتف معتليًا الأكتاف. الاختيال يبرق من عينيّ "همهم"، وهو يجره بكفه المعروق و أصابعه النحيلة. يستسلم الطالب للأيدي المتدافعة نحوه ضربًا، و إلى السيارة الزرقاء صعدا... و سباب منمق مع موسيقي الشخير.

في الصباح التالي،"همهم"بمدخل الكلية، يرفع عقيرته:

– آلة النفخ سقط عنها الصدأ ليلة أمس.

– زوجته معه في المستشفى.

قال صاحبي.

– رأيتها وراءه على الموتوسيكل مرة، صماء الملامح، شعرت أن البشر يتساقطون على أشباههم.

كيف تهتز الملامح الصماء بالنُباح؟

لذة لحلاوة الثبات أمام الباشا"عماد"، يرص عبارات تتزاكى بفهم الحياة، و دواخل الأحياء . أسمو بصمتي و حدقتيّ. لو يُزال سقف الحجرة حتى أطل من علياء نحوه. تتتابع رشفات قهوته، ونفخات سيجارته، يستحيل زفيره بازدياد صمتي إلى شتائم.

يد"هَمّهَمّ"في قفاى ثم الى المكان المعهود.

في ملامحه تتجسد النشوة وتتصلب. آهات وأدعية ربما يشق أحدها الأسقف الخرسابية والصدور الرمادية. ... متصاعدًا...

– وحشتنا.

ألقاها، فاصطكت بعينيّ الصامدة المآقي، تنفرج شفتاه مشكّلة ابتسامة، فتتكشف أسنانه المتآكلة.

كان لقاء في الشارع، مصادفة بعد سنوات.

تقودني قدماي لتقديم العزاء...

يهمس صاحبي عند عودتنا:

– بيته محاصر.

– لِمَ؟

– ابنه قضم أصابع زوجته، ومزق كتف خاله.. والآن يعوى وحيدًا.

مايو ١٩٩٥

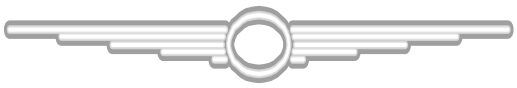

بياضكِ فاقع، واللحم مكتظ في خديكِ، والشحمُ بأردافكِ."الملظلظة": هو لقبك بين البنات. تقول أمي:

– البنت تنام فمها مكبوس، و تصحو فمها مفتوح.

– أمها سمراء قوي؟

تجيب أمي و هي تحاور جارتنا:

– هي عمتها، أصلها لم ترزق، فأخذت هذه البنية من أخيها و ربَّتها من معاش زوجها.

ننهي لعبنا في حَرّ الضحى، فنتجمع تحت شباككم. شفاهنا ناشفة متملِّحة من العرق. أمك تنقل الكوب الصاج بين أفواهنا. كلُ يتعلق به شوية. أما أنت فتناوليني من بعيد، الكوب البلاستيكي الأصفر فأرتوي. كنت تكبريني بأعوام و ها هو صوتكِ ينعم ويتكور صدركِ. تقفين وراء الزجاج تطالعيني أنا و أختي في غُدوِّنا للمدرسة و الضباب يخرج من حلوقنا.

قالت أمي:

– تزوجت الأسطى "صبري" الترزي، و صارت ثالثة زوجة له.. يحلم بالخلف.. لعل و عسى.

و ها هو أراه منغمسًا في صينية الغداء،"بشنبه"المستعرض بوجهه. و أراك تحشين فمه باللقيمات و تضحكين. هل ستغير ضحكاتك من تقطيبة وجهه الدائمة؟ همست خالتي:

– شهور و تركها و سافر إلى"العراق".

و عدتِ إلى وقفتكِ وراء الزجاج و لكن تهدل خداكِ و انطفأت ابتسامتكِ.

تحكي أختي:

– عاد و معه"الخبيث"، و ما جمعه ينفقه، و هي تجاوره مع زوجتيه في المستشفى.

أسابيع و تردف جارتنا:

– الحكيم قال لشقيقه"خذه، خليه في فرشته أحسن....".

صباح جمعة، تصرخين، و تندلق"طبلية"الفطور عندنا و يسيل الفول بمسارعة أقدامنا إليكم. كان صراخكِ أجوف، و ليونة صوتكِ تتسلل شاكية من طياته.

خطواتكِ ساكنة و أنت تحملين شنطة الخضار المشمع، و أنت تلتفين بالملاءة السوداء في سويعات الضحى. ثم تحتلين الكنبة التي تواجه الشباك، و قد تكورت أمكِ في شيخوختها بجوارك و السكون جاثم بينكما.

لم أصدق... ابتسامتكِ لي و حملقتكِ في صدري العريض، و لرفعكِ المتعمد لجلبابكِ البيتي و أنت تمسحين عتبة بيتكما صارت النظرات بيننا... و اللذة و الخوف من هذا الشيء الذي أستشعره وراء أحداقكِ. لِمَ أهتز داخلي من جسدكِ المترهل؟

تموت أمكِ، و يخلو البيت إلا منكِ... ثم ينغلق.

النسوة قلن في جلستهن: هي عند أهلها.

يرتجف قلبي كلما نظرت إلى النافذة المغلقة. يسيل اللُّعاب و أنا أتخيل ما قد سيكون... لو...، غُصّة، و نظراتكِ صماء لي، في السوق، كنت.. أنت، و لكن شحوب و هزال.

و هن يهمسن على العتبات:

– صارت تمسك أسفل ظهرها... و تروح مرتين الغسيل الكلوي..

أطالعك في"الحنطور": عيناك تهتزان، و أصابعكِ نحيلة متشبثة بذراع أخيكِ.

في إحدى إجازاتي من الجيش، و أمي تؤاكلني، تسقط اللقمة من قواطعي، عند قولها:

– ماتت و استراحت و أراحت أهلها.

الخوف له طعم جديد من نافذتك المغلقة.

أبريل ١٩٩٦

حِلْوِتْهُم

البنات يُسمينها:"أم اللِّفف"، فهي مدفوسة في عدة جلابيب وسراويل طويلة، ووجهها الأسمر"المُسَمّسَم"الملامح، يبرز من إيشاربات ملونة. أمها و خالاتها يستربعن أمام بيتهن، يتناقلنها بينهن، تلاغيها كل واحدة بأغنية، و أغنية أمها تنعتها بعشرات الألوان:"يا بيضاء.. يا شقراء..". و يعلو صوت بنت من شباكها:

– قولي"يا سمراء.. ياسوداء..".

فتسبها و تلصق خدها بخد ابنتها، تتحسس نعومتها.

تحكي خالتي:

– كان نصيب أمها كلما أنجبت ولدًا مات، من زوجها الأول ثم الثاني.

أسألها:

– و هذه البنت؟

– أمها خطفت أباها من على زوجته و أبنائه، بعدما سحَرَت له، بقى شهورًا معها ثم عاد لزوجته الأولى،بعد أن حملت فيها أمها.

– البنت لها خالتان، لَم لَمْ تنجبا؟

– ما لهما بخت في الزواج و لا في الخلف.

– نفسي أشوف أبوي.. يا أمي.

قالتها"حِلْوِتْهُم"و أنا ألعب معها في حجرتها.

– بس، يا بنت الكلب.

أطالع أسنان البنت المصفرّة من شربها المستمر للأدوية و هي تبحلق في وجه أمها المنقلب السحنة، و قد فتحت"حِلْوِتْهُم"فمها تجعرّ بالبكاء، و شممت رائحة جوفها المكبوس بالطعام.

تقول خالتي:

– أمها حتى الآن على ذمة أبيها دون رؤيته.. و لو مرة واحدة.

تقلبت أشكالنا مع الأيام: خشنت حناجرنا و رقَّت حناجرهن. صوتها و هي تتحاكى مع رفيقتها من الشباك، مائعًا ناعمًا. قالت أمي:

– البنت كبرت و تدوَّرت...

و أرقتني النعومة في نومي.

فضاء السلم، ضوء اللمبة"السهّاري"، تلتقي عيوننا، حرارة ثدييها، أضطرب... التناغم و النعومة بطبلتي أذنيّ.

حكت خالتي:

– جاءتها"أم فتحي"، و قالت:"العرسان بالباب".

أمها و خالتها:

– شوية على زواجها.

السنون تلف، و خلت النوافذ من البنات و ثرثرتهن و ترمشهن للشباب في الحارة. و من شيش الشرفة، طالعتها تحك جسمها بحائط الشباك و قد غامت عيناها.

أمها و خالتاها في قعدتهن على العتبة، وهي –"حِلْوِتْهُم"– تتوسطهن. كلهن ملتصقات بها، يناغينها، و هي ساهمة في اللا شئ. قالت خالتي: – فاتها القطار.... هل ستسحر لها أمها؟

تقوقعن في البيت حولها.

يأتيني سعالها المتقطع، و قيل أنه مصحوب بدم. و قالت أمي: – وجهها ليمونة ممصوصة، و أصابعها عظام سمراء.

رأيتها خِسة، تفترش ساحة دارها، و أحجبة، و تمائم، و"خميسات"، و...، و هن في التصاقهن و غنائهن لها.

الليل، العيون المتعلقة بأشباح التلفاز. الصراخ المتواصل... أرجل أمي الحافية إليهن و كلنا وراءها.

..... هي في افتراشها و سكونها، و هن متصلبات و متيبسات بها.

النسوة يهمسن:

– إنها هيكل... أصفر... ذابل... منتفخ....

أبريل ١٩٩٦

انـــزلاق

اعتلينا تلك الماسورة، التي تمتد بين طرفي ترعة بلدنا. أسير متئدًا، مستشعرًا الغرق، أنامل قدميّ ترتجف، و هو"متولي"زمالة مقعدي في الفصل، يتقدمني مسرعًا، كأن مشطيه يحفظان موقعهما، يُراهن على القراميط التي يقفشها إذا سبح في الترعة، ويلتفت نحوي مستوثقًا من إصغائي إليه.. أو إلى كذبه....

صوان أذني يتنصت وقع باطن قدميّ الحافيتين. حذائي"الكاوتش"يتدلى من رباطه المعلق بأسناني. ذراعاي يمتدان متأرجحين مع اهتزازي. هو يتقافز.. يتراقص. أتعجب من قدميه الخشنتين ؛ لحفائه الدائم. كان يضيق من حذاء المدرسة الجلدي ؛ أحيانًا يخلعه، و يتربع على الكرسي.

ها قد اقتربنا من ثقب الماسورة الذي يطيّر خيوط الرذاذ، تتخلخل ركبتاي فأنحني لأجلس ثم أزحف عليها، و قطرات الماء تغشي عينيّ، تكتم مسام رأسي و أنفي. و هو لا يزال في اعتلائه هازئًا، بل و يقف على قدم واحدة. أغمضت عينيّ و الثقب تحتي ثم أتجاوزه بزحفي، أتطلع إليه.. أمامي... خلفي... ناديته، كفه تهتز، في وسط الترعة"الغويط"، تنزلق أصابعه حين تحاول التعلق بالماسورة. فمه يدفع نافورة ماء. أصرخ.. أصرخ... أصرخ..

صوت"عم منتصر"من على مصطبته، ألقى جلبابه و قبقابه، قفز و عام نحوه....

العويل، الناس الملتفّون حوله و هو يعيّط على مصطبته، لا يزال بسرواله، ملطخًا بالطين، يحكي:

– و الله، كان في يدي، و فلفص... أمسكته، تعلق بعنقي، كانت أصابعه متخشبة حول رقبتي، سلّكتها، ففلفص.... شعرت برأسه تحت رجلي، غصت... غاص... دوّرت عليه... حتى بين الطحالب...

شمس المغربية... ثم كبس الظلام، و"أم متولي"عند طرف الماسورة، غارقة في الطين اللزج، تنادي عليه، و"الكولبّات"، و العصي المشتعلة...

ثلاثة أيام. و وجدوه عند القناطر القديمة..... كان منتفخًا، فاغرًا فاه.

في الفصل، نظرات الرعب من العيال، و أنا أجاور فراغه، و حذاءه القابع تحت الدرج.

يناير ١٩٩٦